اللغة العربية والمفاهيم الجمالية في القرآن الكريم

د. أحمد الصادق بوغنبو

١- تقديم:

الجمال حاجة كونية وفطرية، يرنو إليها كل البشر، ويهتم بها كل إنسان، فانعكاسات الجمل تحيط بنا في كل أجزاء الكون المنظور، وينضوي سحرها العذب في الكتاب المسطور، ففي كل ما يحيط بنا مثال يعلمنا كيف نسعى لجعل الأدب على شاكلته، وذلك سر المبدعين... ومهيع السارحين في جمال المعنى والأدب، والسالكين في محج غاية الأرب.

ومن الجدير بالذكر أن الاعتناء بجمالية النص الأدبي عامة، والنص القرآني على وجه الخصوص، كان ومنذ القدم محط أنظار كثير ممن سحرهم جمال اللغة العربية وبهاؤها، ورونق أساليبها الأخاذ، بعذوبته وطلاوته.

ففي زمن نزول الوحي على النبي الكريم (، انبهر لأسلوبه فصحاء العرب وشعراؤهم... لما امتاز به أسلوب القرآن من بلاغة وإعجاز في كل جوانبه. فهذا الوليد ابن المغيرة الذي يصفه العرب بريحانتهم وحكيمهم سمع من النبي الأكرم (، قوله تعالى: ﴿حَم × تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ × غَافِرِ الذَّنْبِ وَ قَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ × مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلَادِ × كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَ هَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَ جَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ × وَ كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾(غافر:١-٦). فلما سمع ذلك قام حتى أتى مجلس قومه بني مخزوم فقال: "والله لقد سمعت من محمد آنفاً كلاماً ما هو من كلام الإنس ولا من كلام الجن، وإنّ له لحلاوة، وإنّ عليه لطلاوة، وإنّ أعلاه لمُثمر، وإنّ أسفَلَهُ لمُغدِقٌ، وإنّه لَيعلو وما يُعْلى عليه". ثم انصرف إلى منزله.

عجيب أسلوب الوليد في هذه الواقعة، فهو يرتفع -حين الصدق-الى درجة عليا من البلاغة، فوصفه للقرآن قطعة فنية بليغة معجزة لا تجارى. قال ابن عاشور: "وقد روي أن الفقرات الشهيرة التي شهد بها الوليد بن المغيرة للقرآن من قوله:" إن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة وإن أعلاه لمثمر وإن أسفله لمغدق وما هو بكلام بشر "، قالها عند سماع هذه الآية –يقصد قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾.

فشهادة الوليد لبلاغة القرآن نفسها تنادي ببلاغة صاحبها، فتكون الحصيلة: شهادة بليغ فصيح بتفوق أسلوب القرآن وسحر جماله، وهذا منتهى الإنصاف، إذ هي شهادة خصم معاند للقرآن والإسلام.

المبحث الأول: أين يكمن الجمال، في اللغة أم في فحواها؟

انطلاقا من موقف الوليد بمن المغيرة في تعامله مع تأثير الجمال القرآني وطلاوة تعبيره ولغته، يمكننا أن نبني تصورا عاما عن وجهات أنظار من تحدثوا عن الجمال الأسلوبي للغة العربية عامة ولغة القرآن خاصة فنقول:

نظر الأدباء والعلماء إلى الجمال في الأسلوب الأدبي عامة وتأثيره من خلال زاويتين أساسيتين:

١) الكمال الشكلي: وترى الطائفة القائلة بهذا المعنى، أن جمال النّص عموما يكمن في كماله وإتقان لغته وقواعده، ورونق أسلوبه... بغض النظر عن مضمونه وفحواه، فاللغة التي امتاز بها النص هي محل جماله، ومنبع جلاله.

٢) الفائدة والتأثير: وترى الطائفة القائلة بهذه النظرة، أن جمال النص يتراءى في جمال فائدته ومفاهيمه والمضامين التي تحملها.

وينبثق عن هذا النظر رؤية ثالثة، ترى أن الجمال في النص خارج عن ذاته، وإنما يتعلق بالناظر إليه؛ لذا يتباين الحكم بناء على تباين الثقافة والحس الجمالي لدى الباحثين الناظرين، ومنهم من يرى أن الجمال في النص مزاجي، ذوقي وانطباعي ذاتي، لا علاقة له بالنص ولا بالسياق، حيث إنهم يعتبرون الحس

ISBN: 978 - 9953 - 0 - 2970 - 2

بالجمال رهين بالحالة النفسية للناظر، مما ينتج عنه اختلاف الحكم على النص الواحد في أزمنة مختلفة وأوقات متباينة من طرف الشخص الواحد تبعا لمزاجه.

غير أننا في المفاهيم الجمالية المحدد بحثها في القرآن الكريم، نسلط الضوء على الأبعاد الجمالية في زواياها المختلفة:

١- الشكل والمضمون (الظاهر والباطن).
٢- الوجود الذاتي
٣- المنفعة والجدوى
٤- الانفعال والتأثر...

فتعالوا بنا نعرض جانبا من مفاهيم الجمال، ونرى أنفسنا من أي زاوية ننظر إلى جمالية النص والمفاهيم الجمالية؟ وما الطريقة أو الرؤية التي قاربت رؤية الجمال وأيها جانبت طريقه متسائلين:

ما مفاهيم الجمال الكلية في القرآن الكريم؟ وكيف تمتزج جمالية اللغة بجمالية المفاهيم؟

المبحث الثاني: المفاهيم الجمالية في القرآن الكريم:

لم يأت لفظ الجمال على وزان واحد، ولم نلحظ في ترداده رتابة، بل نراه عذبا يصف المشاهد الجمالية بلغة جميلة بليغة فصيحة، تعكس المقصود وتجليه بأبهى صورة وأجمل حلة، وتجعلنا نتذوق السياقات اللغوية في تنوعها ورصفها البديع، لنحس به قلبا وقالبا في مناجاة يرددها بلغة آسرة، نجد رجع صداها مترقرقا في قلوبنا، فتنتشي به أرواحنا بتتالي لوحات الجمال والجلال، لتصدح مغردة بأجمل التراتيل والابتهال.

عرض القرآن الكريم لمواضيع القيم والصور الجمالية، شامل ومستوعب، كامل في حديثه المفصل عن الكليات، فهو ديوانٌ لصفحات الجمال والجلال ينبض بالحياة، بأسلوب متنوع الصيغ والمفاهيم الجمالية التي تؤدي الأغراض المرادة منها.

وبالنظر الحصيف تنبري مجموعة من المفاهيم...، تبدو الأكثر انتظاما عقد لوحات المفاهيم الجمالية في القرآن الكريم، وسأعرض لها وفق الخطة الآتية:

أ- مفهوم الجمال:

وردت كلمة "الجمال" في القرآن الكريم في مواضع مختلفة، بأغراض وصيغ متنوعة نذكر منها ما تقوم به حاجة البيان:

أولا: صفة ونعتا:

١) جاءت وصفاً للصبر في ثلاثة مواضع، في سورة يوسف على لسان يعقوب، عليه وعلى نبينا السلام،

أ- في قوله تعالى:﴿وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾(يوسف:١٨).

ب- ثم في قوله عز وجل: بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ

ت- (يوسف:٨٣)، والموضع الثالث في سورة المعارج:﴿فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا﴾(المعارج:٥).

٢) جاءت وصفاً للإبل في قوله تعالى:﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾(النحل:٦).

٣) ووردت نعتا للتسريح في قوله تعالى:﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾(الأحزاب:٢٨)، ثم في قوله عز وجل:﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾(الأحزاب:٤٩).

٤) ووردت وصفاً للصفح في قوله تعالى:﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ فَاصْفَحْ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ﴾(الحجر:٨٥).

٥) ووردت نعتا للهجر في سورة المزمل في قوله تعالى:﴿واصْبر عَلَى مَا يَقولُون واهْجرْهُم هَجْرًا جَميلا﴾(المزّمّل:١٠).

٦) وفي قوله تعال: ﴿فاصْبر صَبرًا جَميلا﴾(المعارج:٥)، ويوجهه تارة أخرى عند تخيير أزواجه أن يسرحهن سراحا جميلا إن هن اخترن الدنيا و زخرفها في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ (الأحزاب:٢٨)، كما يؤمر عامة المؤمنين بسلوك السبيل نفسه عند تطليق النساء دون الدخول بهن في قوله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا (الأحزاب:٤٩).

٧) وهناك مظاهر أخرى يتجلى فيها جمال التفاعل والتعامل من رسول الله(في موضوع الصفح، في قوله تعالى:﴿وما

خَلَقْنا السَّمواتِ والأرضِ ومَا بَينَهُما إلاّ بالحقِّ وإنَّ السّاعةَ لآتيةٌ فاصْفح الصَّفحَ الجميلَ﴾(الحجر:٨٥).

٨) موقف نبي الله يعقوب، عليه السلام، الذي ابتُلي بلاء واجهه بالصبر الجميل، فقد فَقَدَ أعز أبنائه وأقربهم منزلة إلى قلبه: نبي الله يوسف، عليه السلام، ففوض أمره إلى الله قائلا:﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾(يوسف:١٨)، فصار قوله هذا يتردد في كل المواقف الشبيهة التي لا تنفع فيها الحيلة ولا البيان، لذلك أُثِرَ عن أمّنا عائشة رضي الله عنها حيال حادثة الإفك، حين قالت: فصبر جميل، والله المستعان على ما تصفون.

• أبعاد ودلالات جمالية لوصف الصبر وتخصيصه بسمة الجمال:

الصبر الذي يستحق أن يوصف بالجميل هو صبر "ليس فيه جزع" ويكون ذلك بـ:

أ- "السكون إلى موارد القضاء سراً وعلناً"، كما قال الألوسي.

ب- أو بـ: "تلقي البلاء بقلب رحيب ووجه مستبشر" وفي هاته الحالة: "يُلقِي العبد عنانه إلى مولاه ويسلم إليه نفسه مع حقيقة المعرفة، فإذا جاء حُكم من أحكامه ثبت له مسلماً، ولا يُظْهِرُ لوروده جزعاً ولا يُرَى لذلك مغتماً"، كما قال الترمذي، ويروى أن النبي(سئل عن الصبر الجميل فقال: "هو الذي لا شكوى معه"؛ لأن حالة التجمل بالصبر تحول بين الإنسان والشكوى والتذمر، فإذا هو راض بالقدر في غير ما جزع، متحملٌ للبلوى دون تسخط أو تأفف، قال الثوريُّ: "من الصَّبْر ألاّ تُحدِّثَ بوجعك، ولا بمُصيبتكَ".

وَمَن جَرَّبَ الشَكوى فَلَم يَجن طائلاً
أَقَرَّ عَلى الصبرِ الجَميلِ قَرارَهُ.

ت- يحول التعبير القرآني مفهوم "الصبر" من اعتباره مجالا للمعاناة، ورضوخا للأزمات إلى طاقة الإرادة، ومجال الجمال المسلي عن الأحزان.

ث- ويخفف به من وطأة المشاكل التي تخيم في سماء صاحبها. بل يتحول الصبر الجميل إلى وسيلة تربوية مهمة في التأثير، تجعل المؤمن في حالة رضى واستسلام، واختبار فعلي لمدى صدقه في الخوف والرجاء فيه، يتحقق ذلك ويتعمق في نفسه.

• تجليات الجمال في الصبر الجميل:

أ- الصبر على البلاء يكون جميلا: "إذا عرف أن مُنَزِّلَ ذلك البلاء هو الله تعالى.

ب- الصبر الجميل على البلاء إذا علم: "أن مُنَزِّلَ هذا البلاء، حكيم لا يجهل، وعالم لا يغفل، عليم لا ينسى رحيم لا يطغى، وإذا كان كذلك، فكان كل ما صدر عنه حكمة وصواباً، فعند ذلك يسكت ولا يعترض".

ت- الصبر الجميل عندما يتيقن أن هذا البلاء من الحق سبحانه، فيستغرق في مشاهدة نور المُبْلِي، استغراقا يمنعه من الاشتغال بالشكاية عن البلاء، ولذلك قيل: "المحبة التامة لا تزداد بالوفاء ولا تنقص بالجفاء، لأنها لو ازدادت بالوفاء لكان المحبوب هو النصيب والحظ، وموصل النصيب لا يكون محبوباً بالذات بل بالعرض".

• لفتة جمالية: هل هناك "صبر قبيح في مقابل الصبر الجميل"؟

الجواب: نعم "إذا كان الصبر ليس لأجل الرضا بقضاء الله وقدره، بل كان لسائر الأغراض الأخرى"، لذلك قال يعقوب، عليه السلام: ﴿والله المستَعانُ عَلى ما تَصفونَ﴾(يوسف:١٨) مباشرة بعد قوله: ﴿فصبرٌ جميلٌ﴾ في إشارة إلى أن الصبر لا يكون جميلا إلا في مرضاة الله، ولا يكون كذلك إلا إذا أعان الله المؤمن على التحمل والصبر: "وذلك لأن الدواعي النفسية تدعو إلى إظهار الجزع وهي قوية، والدواعي الروحانية تدعو إلى الصبر الجميل، فكأنه وقعت المحاربة بين الصفتين، "أي صفة الجزع والصبر الجميل"، فما لم تحصل المعونة منه جل وعلا لا تحصل الغلبة للصبر الجميل على الجزع، فقوله: فصبر جميل يجري مجرى: ﴿إياك نَعبدُ﴾(الفاتحة:٥)، وقوله: والله المستعان على ما يَجْرِي مجرى: إياك نستعين.

فصبر يعقوب، عليه السلام، صريح في دلالة الصبر الجميل الوارد في الآية، إذ صبْرُه عليه السلام في قمة الجمال، يدل على ذلك ما يأتي:

أ- "عرف بقرائن الأحوال أنَّ أولاده أقوياء،

ب- وأنَّهم لا يمكنونه من الطَّلب والفحص،

ت- وأنَّه لو بالغ في البحث فربما أقدموا على إيذائه،

ث- وأيضاً لعلمه، عليه الصلاة والسلام، أنَّ الله تبارك وتعالى سيصون يوسف،

ISBN: 978 - 9953 - 0 - 2970 - 2

عليه الصلاة والسلام، عن البلاءِ والمحنة،

ج- وأن أمرهُ سيظهرُ بالآخرة،

ح- ولم يرد هتْك ستر أولاده وإلقاءهم في ألسنة النَّاس، وذلك لأنَّ أحَد الولدين إذا ظلم أخاه وقع أبوه في العذاب الشَّديد؛ لأنه إذا لم ينتقمْ؛ يحترق قلبه على الولد المظْلُوم، وإن انتقم احترق قلبه على الولدِ المُنتقَم منه، فلمَّا وقع يعقوب في هذه البلية رأى أنَّ الأصوب الصَّبر والسُّكون، وتفويض الأَمْرِ بالكُلِّيَّة إلى اللهِ تعالى". ينظر موسعا في تفسير اللباب، لابن عادل عند تفسير قوله تعالى: ﴿فصبرٌ جميلٌ﴾.

وهنا تجدر الإشارة إلى عدم قبول كل المعاني والتأويلات التي تتعارض وجمالية القرآن، أو التي تشوش على نصاعة الرؤية الجمالية القرآنية في الكلمة والتركيب، أو في المعنى والسياق.

ثانيا: مبتدأ مؤخرا للتنصيص:

وردت مبتدأ مؤخرا في قوله تعالى: ﴿وَالأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (٥) وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾(النحل:٥-٦)، فجمال الإبل باد للعيون في حالتي الغدو والرواح، يقول السيوطي في هذا المعنى، رحمه الله، بقوله: "فإن الجَمال بالجِمال وإن كان ثابتاً حالتي السراح والإراحة إلا أنها حالة إراحتها وهو مجيئها من الرعي آخر النهار يكون الجمال بها أفخر، إذ هي فيه بطان، وحالة سراحها للرعي أول النهار يكون الجمال بها دون الأول إذ هي فيه خِمَاص".٢ فالإبل بعد امتلاء بطونها بالطعام: "تكون أمَدّه خواصر، وأعظمه ضروعًا، وأعلاه أسنمة"٣.

وعليه، فجمال الإبل في الرواح أكثر: "لأنها تُقبل ملأى البطون حافلة الضروع، ثم اجتمعت في الحظائر حاضرة لأهلها بخلاف التسريح، فإنها عند خروجها إلى المرعى تخرج جائعة عادمة اللبن ثم تأخذ في التفرق والانتشار، فظهر أن الجمال في الإراحة أكثر منه في التسريح؛ ووجه التجمل بها أن الراعي إذا روحها بالعشي وسرحها بالغداة تزينت عند تلك الإراحة، وتجاوب فيها الثغاء والرغاء، وفرحت أربابها وعظم وقعهم عند الناس بسبب كونهم مالكين لها"٤.

توجد نصوص كثيرة تؤكد أهمية وجود الجمال في حياة الإنسان، بل هو وسيلته للتعرف على جلال الله وعظمته.

مع ذلك، وجب التنبيه إلى أن هذا الحضور القوي للحس الجمالي عند المفسرين واللغويين في تناولهم للآية الكريمة، يدل على استعمالهم المكثف للمفاهيم الجمالية البارزة وتجليات الثاوية خلف مصطلحاتها.

نورد هنا مثالا لتفسير تفصلنا عنه أكثر من سبعة قرون، تحدث عن المعاني الجمالية في تفسيره لهذه الآية من سورة النحل. وهو: تفسير القرطبي، (ت٦٧١هـ) يقول في تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾(النحل:٥-٦) "قال علماؤنا: فالجمال يكون في الصورة وتركيب الخِلقة، ويكون في الأخلاق الباطنة، ويكون في الأفعال؛ فأما جمال الخلقة فهو أمر يدركه البصر ويلقيه إلى القلب متلائما، فتتعلق به النفس من غير معرفة بوجه ذلك ولا نسبته لأحد من البشر... وأما جمال الأخلاق فكونها على الصفات المحمودة من العلم والحكمة والعدل والعفة، وكظم الغيظ وإرادة الخير لكل أحد. وأما جمال الأفعال فهو وجودها ملائمة لمصالح الخلق وقاضية لجلب المنافع فيهم وصرف الشر عنهم. وجمال الأنعام، والدواب من جمال الخلقة، وهو مرئي بالأبصار موافق للبصائر. ومن جمالها كثرتها وقول الناس إذا رأوها: هذه نعم فلان، ولأنها إذا راحت توفر حسنها وعظم شأنها وتعلقت القلوب بها، لأنها إذ ذاك أعظم ما تكون أسنمة وضروعا. ولهذا المعنى قدم الرواح على السراح لتكامل درها وسرور النفس بها إذ ذاك والله أعلم"٥.

ب- مفهوم الحسن:

هذا مصطلح آخر يتشكل منه مفهوم الجمال، ويدل في جوهره على أن اللفظة تفيد أنه جزء من تكوين «الشيء الموسوم بالجمال» وحقيقته، ولا يدل على ذات الشيء أساسا بل للتعبير عن «حقيقته». من ذلك قوله سبحانه في سورة الأحزاب:﴿لا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ﴾(الأحزاب:٥٢)، وقد ذكر هذا المصطلح بصيغ مختلفة جاءت منسجمة مع الإطار العام الذي ذكرت فيه في القرآن الكريم، وخادمة للغرض التعبيري والمضموني المقصود.

• وحدة الدلالة وتنوع الأسلوب:

يمكن القول بعد التأمل في استعمال مفهوم "الحسن" في سياقات مختلفة من التعبير القرآني أنه: حافظ على دلالة واحدة، على الرغم من تنوع السياقات التي

وجد فيها وتعدد أساليبها، وهذه الدلالة تتصرف إلى أن "الحسن" في الشيء دليل على أن الجمال جزء من تكوينه وحقيقته كما أشرنا إيه آنفا، أو أن الجمال مكون أساس لماصدقه وجوهره، وهذا يعني أن "الحسن" في توصيف القرآن وفي استعمال الفصحاء: "لا يستعمل للدلالة على وقع ذلك "الشيء" في النفس بل للتعبير عن حقيقته"، تماما كما هي ماثلة فيه، فالمرأة مثلا بجبلتها حسناء، ولذلك يصف القرآن الكريم جمالها بالحسن عندما يقصد هذا الملمح كما في قوله تعالى في سورة الأحزاب: ﴿لا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيباً﴾ (الأحزاب:٥٢). كما في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْراً عَظِيماً﴾ (الأحزاب:٢٩).

وقد ورد التنصيص صراحة على نهي النساء عن استعمال الزينة في غير محلها، وإظهارها في غير ما شرعت له بأسلوب قمة في الروعة والجمال، ولم ينتخب وصفا آخر غير وصف "الزينة" الذي تكرر ثلاث مرات في آية واحدة.

يقول تعالى: ﴿وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْأَرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (النور:٣١).

• الاستقراء الدلالي: جسر رابط بين جمالية اللفظ ونسق المعاني:

الارتباط المادي بين الحسن والجمال الحقيقي الموجود في الأشياء، مسألة تتضح بالاستقراء في معظم الآيات القرآنية التي ورد فيها لفظ "الحسن" بجميع صيغه. فلفظ "الحسن"، جاء في منظومة من المواقف والصور والمشاهد والتطبيقات التي يسكنها الجمال من كل ناحية، بل هي الجمال عينه، فبينها علاقة نسب معنوي عميقة، تزداد ف كل آية تألقا، وتأخذ الألباب كلما تطور التصوير وتنوعت المشاهد، كانت إنسانية، أو كونية.

﴿وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقاً﴾ (النساء:٦٩)، حسُنت هاته الرفقة في الآخرة، كما حسنت في الدنيا لتوفر مجموعة من الشروط، تتفق جميعها في كونها موصوفة بالحسن، والحُسن هنا ليس شيئا آخر غير الجمال الحقيقي الذي لا تشوبه شائبة، ولا يعكر صفوه كدر.

لنتأمل أمثلة من هاته الشروط في الآيات الآتية:

١- الإحسان في العبادة بجمالية الامتثال،

٢- حسن تأدية الواجبات، خضوعا وتبتلا

٣- والاجتهاد في طول المناجاة،

٤- ودوام التبتل والدعاء:﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِيناً مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً﴾ (النساء:١٢٥).

٥- الإحسان إلى الوالدين قربة وتعبدا:﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْناً وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (العنكبوت:٨).﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْناً﴾ (البقرة:٨٣)

﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالاً فَخُوراً﴾ (النساء:٣٦)

﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاهُمَا فَلا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلاً كَرِيماً﴾ (الاسراء:٢٣).

٦- التضامن والقرض الحسن:﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافاً كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (البقرة:٢٤٥). وقوله سبحانه:﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيباً وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ (المائدة:١٢)

٧- القدوة الحسنة برسول الله(والأنبياء والصالحين، وذلك في قوله تعالى:﴿

ISBN: 978 - 9953 - 0 - 2970 - 2

لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً﴾(الأحزاب:٢١).

٨- الدعوة الصادقة والموعظة الحسنة:﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾(النحل:١٢٥).

٩- التحية الحسنة:﴿وَإِذَا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيباً﴾(النساء:٨٦) النساء:٨٦.

١٠- المجادلة بالحسنى:﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾(النحل:١٢٥) ﴿وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾(العنكبوت:٤٦).

١١- مطلق الإحسان:﴿إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيراً﴾(الاسراء:٧)

١٢- الأمر بالمعروف والإحسان:﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾النحل، آية ٩٠. لما جاء أن هذا القرآن تبيان لكل شيء، وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين، حسن التخلص إلى تبيان أصول الهدى في التشريع للدين الإسلامي العائدة إلى الأمر والنهي، إذ الشريعة كلها أمر ونهي، والتقوى منحصرة في الامتثال والاجتناب، فهذه الآية استئناف لبيان كون الكتاب تبيانا لكل شيء، فهي جامعة أصول التشريع.

• التوكيد للشأن والاهتمام بالحسن والجمال:

افتتحت الجملة بحرف التوكيد للاهتمام بشأن ما تحدثت عليه،﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾النحل، آية ٩٠. ومن هنا تفرعت شعب المعاملات الاجتماعية بصفة عامة، ومرجع تفاصيل العدل أدلة الشريعة، فالعدل هنا كلمة مجملة جامعة لكل أصناف الخير والقسط في المعاملات.

وأما الإحسان فهو التعامل بالحسنى، والحسن: ما كان محبوبا عند المعامل به، ولم يكن لازما لفاعله، ثم الإحسان في المعاملة فيما زاد على العدل الواجب، وهو يدخل في جميع الأقوال والأفعال.

ت- مفهوم الزينة:

مفهوم الزينة من المفاهيم الجمالية في القرآن الكريم إذ يأخذ أبعادا دلالية وفنية وجمالية، ينبسط رونقها في مسرد الأيلت القرآنية الكريمة عاكسا لمسة جمالية في كل سياق يتصل به، أو موضوعا يعالجه.

وقد ذكرت مفردة "الزينة" باشتقاقاتها المختلفة في مواضع مختلفة (٤٦موضعا) من القرآن الكريم، نقتصر على بعض منها، وهذا اللفظ استعمل في سياقات متنوعة تعكس مدى أهمية هذا المفهوم الجمالي من جهتين:

أولا: الاستعمال المكثف لهذا اللفظ، حيث استخدم خمس مرات بلفظ "الجمال".

ثانيا: استعماله بمعاني مختلفة في حقول دلالية مختلفة في القرآن الكريم، تدرجا من الخاص إلى العام.

• الانتقال من الجزء إلى الكل من خائص مفاهيم الجمال:

النص القرآني يلفت انتباهنا إلى أن الزينة والجمال والبهاء في ربوع الكون الذي هو خلق إلهي ينسبه تعالى إلى نفسه: ﴿ولقد زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وجعَلْنَاها رُجومًا للشَّياطينِ وأعْتدْنا لَهم عَذابَ السَّعيرِ﴾(الملك:٥).

ويقول سبحانه: ﴿إنا زيّنّا السَماءَ الدُّنيا بزينَة الكَواكبِ﴾(الصافات:٦)، ﴿فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظاً ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾فصلت:١٢.

وهذه الزينة غير مقصورة على السماء وحدها، بل سارية في الوجود كله، وتسري في جزئيات الحياة وتفاصيلها. فهذه الحياة زينة ومتاع من سائر نواحيها:

قال تعالى: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرّاً ثُمَّ يَكُونُ حُطَاماً وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾(الحديد:٢٠)، ومن هاهنا فكل ما في الكون والحياة لا يخرج

عن قاعدة: ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾ (القصص:٦٠).

وزيادة في الإيضاح يورد القرآن الكريم أمثلة من هذه الأشياء التي خلقها الله وزينها لعباده، يقول سبحانه:﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾ (الكهف:٤٦).

فالإنسان المسلم مدعو بقوة إلى التمتع بزينة الدنيا و تحمل الأمانة الثقيلة التي كُلف بها، من هنا كانت دعوة القرآن لبني آدم صريحة في أن يتزينوا ويتحلوا بالجمال عند قدومهم للعبادة: ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ (لأعراف:٣١) ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ (لأعراف:٣٢).

يدعو الله خلقه أن يُعملوا نظرهم في هذا الكون المزين الجميل: ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ﴾ (ق:٦) ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجاً وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ﴾ (الحجر:١٦)

﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾ (النحل:٨).

﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لا تَعْلَمُونَ) (النحل:٨) ﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾ (النحل:٨).

فتكامل المفاهيم الجمالية تخدم نفس الغرض و، اختلف موقعها، كما هو الشأن مع مفهوم "الحسن".

ب- مفهوم التسوية:

مفاهيم القرآن الجمالية ترتقي بمظاهر الجمال من حيث موقعها ووقعها في النفوس كما سبق مع مفهوم "الجمال"، أو من حيث الوجود الحقيقي كما هو الشأن مع مفهوم "الحسن"، أو من حيث ارتباطه بالاستعمال سلبا وإيجابا كما مر مع مفهوم "الزينة"؛ وتصل أوجها وجمالها مع مفهوم "التسوية"؛ حيث الحاجة إلى الجمال ضرورة في المظهر والمخبر.

• اللغة خادمة للجمال القرآني، وهو مؤكد له:

يقول الأزهري في تهذيب اللغة "المستوي" لغة: "التامُّ الذي قد بلغ الغاية في شبابه وتمام خلقه وعقله"٦، ومن عادتهم في الكلام أن لا يقال في شيء من الأشياء "استوى بنفسه" حتى يُضَمَّ إلى غيره، فيقال: "استوى فلان وفلان" إلا في معنى بلوغ الرجل الغاية، فيقال: "استوى"، ومن ذلك وصفهم لليلة الثالثة عشرة بالليلة السَّواء لأن فيها يستوي القمر ويكتمل، ووصفهم للقَتَب الأعجمي المقدم للبعير بـ" السَوِيّة" ويجمعونه على "السَّوايا"، ومنه وصفهم للمكان البارز بـ" المكان السوي" لاكتماله وظهوره بحيث لا يخفى على أحد، وهذا المعنى هو المراد في قوله تعالى: "مكاناً سوًى"، أي: معلما قد عَلِمَ القومُ به لاستوائه استواء يسهل إدراكه ومعرفته.

والنص القرآني جاء موردا لمفهوم التسوية ليحافظ على المعنى السابق للتسوية ويؤكده، في أحسن صورة وأبهى حلة.

قال تعالى: ﴿الذي خَلَقَ فَسَوّى﴾ (الأعلى:٢).

وقال: ﴿الذي خَلَقَكَ فَسَوّاكَ فعَدَّلَكَ﴾: (الانفطار:٧) أي: الذي خلق الإنسان على صورة سوية سليمة معدة لمنافعها، و" جعل قامتك مستوية معتدلة وخلقتك حسنة"، كما قال:﴿لقد خَلَقنا الإنسَان في أَحسَن تَقويم﴾التين آية:٤.

ونظيره قوله تعالى:﴿قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً﴾ (الكهف:٣٧).

أي: معتدل الخلق والأعضاء، قال ذو النون: "أي سخَّر لك المكونات أجمع، وما جعلك مسخَّراً لشيء منها، ثم أنطق لسانك بالذكر، وقلبك بالعقل، وروحك بالمعرفة، ومدك بالإيمان وشرفك بالأمر والنهي، وفضلك على كثير ممن خلق تفضيلاً"٧.

• المستوى الدلالي بين الظاهر والباطن:

إن التسوية هاهنا تتجاوز جمال الشكل الخارجي إلى جمال المضمون والفحوى، بل إنها تجمع بينهما في اتساق وتكامل، وعليه، "فاعوجاج زُبَانَى العقربِ من تسوية خلقها لتدفع عن نفسها بها بسهولة"٨.

فالتسوية في الأصل هي كما قال

ISBN: 978 - 9953 - 0 - 2970 - 2

الألوسي، رحمه الله، في تفسيره لقوله تعالى: ﴿الذي خلقك فسواك فعدلك . . ﴾ (الانفطار:٧): "جعل الأشياء على سواء، فتكون على وفق الحكمة ومقتضاها بإعطائها ما تتم به"٩، و" عدلها عدل بعضها ببعض، بحيث اعتدلت من عدل، فلاناً بفلان إذا ساوى بينهما، أو صرفها عن خلقة غير ملائمة لها من عدل بمعنى صرف، وقرأ غير واحد من السبعة عدلك بالتشديد أي صيرك معتدلاً متناسب الخلق من غير تفاوت فيه.

ولقد توسع المفسرون، رحمهم الله، في بيان مدلول التسوية بما لا يتسع المجال لبسطه هنا، ويمكن الاكتفاء ببعض الأمثلة التي تخدم غرضنا من هذا المبحث، فقد حصر صاحب "النكت والعيون" ١٠عموم الدلالات التي عليها مدار التسوية في الآتي:

- أحدها: أنشأ خلقهم ثم سوّاهم فأكملهم.
- الثاني: خلقهم خلقاً كاملاً وسوّى لكل جارحة مثلاً.
- الثالث: خلقهم بإنعامه وسوّى بينهم في أحكامه.
- رابعاً: خلق في أصلاب الرجال، وسوّى في أرحام الأمهات.
- خامساً: خلق الأجساد فسّوى الأفهام.

وأشار في موضع آخر عند تفسيره لقوله تعالى:﴿الذي خلقك فسواك فعدلك . . .﴾(الانفطار:٧) إلى أن التسوية تحتمل ثلاثة أوجه:

- أحدها: فسوى خُلقك وعدل خِلقتك.
- الثاني: فسوَّى أعضاءك بحسب الحاجة وعدلها في المماثلة لا تفضل يد على يد، ولا رجل على رجل.
- الثالث: فسواك إنساناً كريماً وعدل بك عن أن يجعلك حيواناً بهيمياً. أي: سوّاك عقلا وعدلك إيمانا.

قال تعالى: ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى× الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى × وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى﴾(الأعلى:١-٣)، وهو في دليل شريف، وبه يتم الاستدلال على وجود الصانع بأحوال الجسد والخلق.

خاتمة بأهم النتائج:

بناء على ماسبق، يمكن القول: إن أغلب النقول عن التفسيرات التي أوردناها تُقصر التسوية على الجانب المادي، وترى أن التعبير القرآني يستعمل مصطلح "الهداية" للدلالة على تسوية الروح والباطن، أما التسوية فهي خاصة بالجانب المادي لاغير. وباستعمالنا للفهم الجمالي لدلالات المفاهيم الجمالية، يكون الفهم السابق الذي ألبسه المفسرون لمفهوم "التسوية" غير مسلم به في مجمل ما قدموه، مع تقدير جهودهم وآرائهم، إذ إن السياق القرآني يحتفظ لهذا المفهوم بدلالة تتوافق وماصَدَقَهُ والمراد منه، فالشيء السوي هو المكتمل في مظهره ومخبره، في ظاهره وباطنه، في تمظهراته البرانية، وتجلياته الباطنية على السواء. يتعزز هذا الفهم أكثر عندما نرى أن القرآن الكريم كما ينسب التسوية إلى الخلق:﴿الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى...﴾(الأعلى:٢)، ينسبها أيضا إلى النفس: ونفس وما سواها . .، وعليه فالتسوية في الإطلاق القرآني تشمل دفعة واحدة الجسد والروح، الظاهر والباطن،

إن مفهوم "التسوية" هو تاج على رؤوس المفاهيم الجمالية في القرآن الكريم ويضعنا أمام حقيقة مهمة يغفل عنها الكثير، وهي متعلقة بفرادة الطرح الجمالي للقرآن الكريم، الذي يستهدف الجمال في كل التجليات المفهومية.

ونخلص من ذلك إلى أن:

١- المفهوم الجمالي مفهوم كلي شامل له نسق متكامل في النص القرآني.
٢- أن جمال الأسلوب والمعنى تتلاحم بشكل ملفت في الأسلوب القرآني المعجز.
٣- أن اللغة العربية هي مفتاح النسق الجمالي لمفاهيم الجمالية في سبيكة متفردة.
٤- أن جمال المبنى لا ينفصل عن جمال المعنى بل هما متكاملان ويرتقيان في أبهى صورة في السرد القرآني.
٥- أن النظر الكلي لزوايا الجمال هو ما يميز الإعجاز البياني لمعاني القرآن الكريم ولغته الراقية.

الإحالات والهوامش:

١ البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، ج٨، ص ٢٢٩. ومجمع البيان في تفسير القرآن، ج ٥، ص ٣٨٧.

٢السيوطي، لإتقان في علوم القرآن. ج١ ص ١٤٠٥.

٣الحافظ ابن كثير، التفسير العظيم، ج ٢ ص٣٨٣.

٤ الرازي، فخر الدين محمد بن عمر، تفسير مفاتح الغيب، دار الفكر (بيروت، لبنان). ج١٩، ص٢٣٣.

٥القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج ١٢، ص ٢٧٤.

٦ الأزهري، تهذيب اللغة، مادة: (س و ى).

٧ ابن عادل الدمشقي، اللباب في علوم الكتاب، ج٢٠، ص١٩٨. ط، دار الكتب العلمية.

٨ محمد بلال إبراهيم البربري، التفسير اللغوي الموجز، ج٣٠، ص ٦٩. ط، دار الكتب العلمية.

٩ الألوسي، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، ج١١، ص٢٦٩.

١٠ الماوردي، أبو الحسن علي بن محمد البصري، النكت والعيون، ج٦، ص٢٥٢.

مصادر ومراجع:

١) تفسير مفاتح الغيب للرازي، فخر الدين محمد بن عمر، دار الفكر (بيروت، لبنان).

٢) تفسير بحر المعاني للألوسي.

٣) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير

٤) سنن الترمذي.

٥) في تفسير اللباب، لابن عادل.

٦) تفسير القرطبي، الجامع لأحكام القرآن.

٧) تفسير التحرير والتنوير، للطاهر بن عاشور.

٨) تفسير البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور.

٩) اللباب في علوم الكتاب، لابن عادل الدمسقي، ط، دار الكتب العلمية.

١٠) ومجمع البيان في تفسير القرآن، للطبرسي.

١١) عمدة التفاسير من الحافظ ابن كثير.

١٢) الإتقان في علوم القرآن، للسيوطي.

١٣) علم الجمال رؤية في التأسيس القرآني، عمر عبيد حسنة.

١٤) تهذيب اللغة، لأبي منصور محمد بن أحمد الأزهري الهروي.

١٥) ألفاظ الجمال في القرآن الكريم، عباس توفيق.

ISBN: 978 - 9953 - 0 - 2970 - 2